مدوّنة تعنى بنشر الكتابات التخصصية لبراعة الحوزة العلمية الشريفة

مقدمة ديوان ندبة الأولياء: قراءة في الديوان

بقلم

سماحة الشيخ حسن بن علي آل سعيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله البديع في بيانه، المتفرِّد في سُلطانه، جاعلِ اللسانَ للقلب سفيره وترجمانه، والصلوات الزاكيات على سابك المعاني في قوالب البيان، أفصح من نطق الضاد في كل زمان، المبعوث من آل عدنان، محمد المصطفى عالي الشان، وآله زينة الخلق وعلة الأمان، ما غرد طير واخضر غصن بان.

وبعد، فإنَّ كلام العرب ينقسم إلى منظوم ومنثور، وكل منظوم هو أحسن من كل منثور من جنسه في العادة، وكان الكلام كله منثورًا، فاحتاجت العرب إلى التغني بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها، وفخرها، وذكر أوطانها وأيامها ورجالها، فكتبت الشعر لأجل ذلك، وقيل: ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون؛ فلم يحفظ من المنثور عُشره، ولا ضاع من الموزون عُشره.

ويعد الشعر من أكثر الفنون الأدبية رواجًا قديما وحديثًا، لتأثيره في النفوس على مر العصور، فترى عندما يُذكر الأدب يتبادر الذهن أولا إلى الشعر، لقوة دلالته عليه.

واشتهر العرب بالشعر في الزمن القديم، واختلفت أغراضه باختلاف العصور، فقبل الإسلام كان أداة إعلامية للفخر والمدح، أو للهجاء والذم، ثم في بداية ظهور الإسلام استعمل في مدح مقام النبوة وسيد الأنبياء، والدفاع عن الإسلام، فكان وسيلة من وسائل الدفاع عن الإسلام ضد أعدائه، وفي العصر الأموي والعباسي كان وسيلة سياسية وفكرية، وفي الوقت الحالي لا زال للشعر تأثيره في الحياة الأدبية والفكرية والسياسية والدينية.

فللشعر نفع كبير في الحياة الاجتماعية في مختلف العصور، ويمكن تلخيص أهميته وثمراته في أمور منها: إثارة حماس الجماهير لعقيدة دينية أو سياسية، وإثارة عواطفه وتوجيهه إلى

وجهة فكرية أو غيرها، وإهاجة الحزن والبكاء مع التوجع والألم في النفوس، كما يحدث في مجالس الرثاء والعزاء، وكونه وسيلة من أهم الوسائل الإعلامية والدعائية، وغيرها من الأمور.

والشعر يعتبر خلاصة صافية للتجارب الإنسانية، ومصدرًا لتدوين معارفهم المختلفة، لذلك قيل: (الشعر ديوان العرب). وعُرف لفظ الديوان عند العرب بدلالته المشتركة بين التحليل والتسجيل، وقد أحسَّ النقاد العرب بالقيمة المعرفية للشعر العربي منذ وقت مبكر جدًا.

ولأن الشعر ديوان العرب التراثي، ومادة تاريخهم، وسجل حياتهم، تجد حرص العرب على حفظ أشعارها لتأخذ العبرة منها، وتوثّق العلاقة بين حاضرها وماضيها، ولتكون معلمًا للأجيال القادمة.

وربط النقاد العرب الذين تغلب عليهم النزعة الفلسفية الشعر بالغايات الخلقية، مثل: الفارابي وابن سينا وابن رشد ومسكويه وغيرهم، فتجدهم تحدثوا كثيرا عن تأثير الشعر، وصرحوا بأن فيه من التأثير ما يشبه السحر؛ لأنه ممتع لذيذ، ويمتلك قِيَمًا جمالية متميزة، وصرحوا بتأثيره في النفس بإثارته المشاعر، ثم يتعدَّى ليتحول هذا الشعور النفسي إلى سلوك عملي ومواقف فعلية.

ولما كان للشعر هذا التأثير في النفوس اعتُبر مصدرًا للحكمة والتربية والتهذيب، حيث كان الشاعر يربّي قومه على الفضيلة، والأخلاق الحميدة، ويزجرهم في الوقت نفسه عن الأفعال الدنيئة؛ وذلك عن طريق تقبيحه للبخل والعادات السيئة ومدحه السخاء والعادات الحسنة مدحا يشجع الآخرين على فعلها، فتشب النفس على الفضيلة، وتسمو في مدارج الرفعة، فكان الشعراء حينذاك بمقام المصلحين يرشدون الناس بشعرهم إلى مكارم الأخلاق.

لذا نجد الحث على تعليمه للأولاد إذا كان نابعًا من فطرة سليمة ودين قويم، مثل ما رواه الكشي عن الصادق (عليه السلام): (يَا مَعْشَرَ الشِّيعَةِ عَلِّمُوا أَوْلادَكُمْ شِعْرَ الْعَبْدِيِ؛ فَإِنَّهُ عَلَى دِينِ اللهِ)، والتعليل دال على المطلوب.

ولذلك كان خير الشعر وأفضله عند الله منزلة ورتبة ما كان في مدح ورثاء ونصرة أوليائه وهم أهل بيت النبوة والعصمة (صلوات الله عليهم)، فقد روي أن الكميت بن زيد دخل على أبي جعفر (عليه السلام) وأنشده شعرًا، فلما فرغ قال (عليه السلام) للكميت: (يَا كُمَيْتُ لا تَزَالُ مُؤَيَّدًا بِرُوحِ الْقُدُسِ مَا نَصَرْتَنَا بِلِسَانِكَ وَقُلْتَ فِينَا).

وروي في العيون عن الصادق (عليه السلام): (مَنْ قَالَ فِينَا بَيْتَ شِعْرٍ بَنَى اللهُ تَعَالَى لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ)، وفيه عنه (عليه السلام): (مَا قَالَ فِينَا قَائِلٌ بَيْتًا مِنَ الشِّعْرِ حَتَّى يُؤَيَّدَ بِرُوحِ الْقُدُسِ)، وفيه عن الرضا (عليه السلام): (مَا قَالَ فِينَا مُؤْمِنٌ شِعْرًا يَمْدَحُنَا بِهِ إِلا بَنَى اللهُ تَعَالَى لَهُ مَدِينَةً فِي الْجَنَّةِ أَوْسَعَ مِنَ الدُّنْيَا سَبْعَ مَرَّاتٍ يَزُورُهُ فِيهَا كُلُّ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ وَكُلُّ نَبِيٍّ مُرْسَلٌ).

بل ورد الحث على قول الشعر في الحسين (عليه السلام) بالخصوص، ففي كامل الزيارة عن الصادق (عليه السلام): (مَنْ أَنْشَدَ فِي الْحُسَيْنِ (عليه السلام) بَيْتَ شِعْرٍ فَبَكَى وَأَبْكَى عَشَرَةً فَلَهُ وَلَهُمُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ أَنْشَدَ فِي الْحُسَيْنِ بَيْتًا فَبَكَى وَأَبْكَى تِسْعَةً فَلَهُ وَلَهُمُ الْجَنَّةُ ... مَنْ أَنْشَدَ فِي الْحُسَيْنِ بَيْتًا فَبَكَى ... أَوْ تَبَاكَى فَلَهُ الْجَنَّة).

وكانت تعقد المجالس عند أهل البيت (عليهم السلام) في رثاء الحسين (عليه السلام)، ويجمعون صغارهم وكبارهم لأجل ذلك، ففي الكافي أنه دخل سفيان بن مصعب العبدي، وكان شاعرًا مُجيدًا، على أبي عبد الله (عليه السلام)، فأمر الصادق (عليه السلام) بابنته أم فروة لتسمع ما صُنع بجدها الحسين (عليه السلام)، فلما جاءت أمر العبدي بالإنشاد في الحسين (عليه السلام)، فأنشد حتى بكى كل من في الدار.

ولا يخفى ما روي في استنشاد الصادق (عليه السلام) للحميري أيضًا، وكان يُجلس نساءه خلف الستار، فيسمعن ويبكين، ودونك أيضا استنشاده لأبي هارون المكفوف، وأبي عمارة المنشِد، وعبد الله بن غالب، وجعفر بن عفان الطائي، وغيرهم.

ولم تخضع قضية الحسين (عليه السلام) لمرحلة معينة من التاريخ، بل ترسخت في القلوب والأذهان على مدى العصور والأجيال، وكلما تقدم الزمن تنفتح من تلك الواقعة آفاق ورؤى متجددة رحبة، ينتقل فيها الشعراء من الواقعة كسرد تاريخي إلى أبعادها المعنوية والإنسانية، ويتغلغلوا في أعماقها وتفاصيلها، فهي الملحمة المتجددة أبدًا، والكتاب المفتوح للشعراء دائمًا، وكان من سعادة الشاعر أن يكتب في الحسين (عليه السلام) وتُقرأ مراثيه، فيخلد ذكره بذكر الحسين (عليه السلام).

وها نحن أمام تجربة جديدة لشاعرنا المُجيد والأخ الصديق العزيز الخطيب البارع الملا حسين بن الشاعر الخطيب الملا محمد بن الشاعر الخطيب الملا سعيد بن الشاعر الخطيب الشهيد الشيخ عبد الله العرب الدرازي الجمري (حفظه الله)، الذي نال شرف رثاء الحسين (عليه السلام) وأهل البيت (صلوات الله عليهم)، فكان وآباؤه ممن فازوا بالرقيب والمعلى، وارتبط ذكرهم بذكر الحسين (عليه السلام)، وقد كان موفقًا لذلك بتأييد الله (عز وجل)، فزاده الله توفيقًا وتأييدًا، حيث شرع في جمع ما ترشّح من قريحته الملتهبة بجمر الولاية، وأطلق على مجموعه (ندبة الأولياء)، رفعه الله بكل بيتٍ قاله درجة في السعداء.

ولا يخفى على من اطلع في هذا الديوان تميز شاعره بالنفس البديع المشجي في الرثاء، الذي هو فن من الفنون التقليدية الموروثة، والرثاء من أكثر الأغراض صلة بالنفس والتصاقا بالوجدان، وقد تميز رثاء شاعرنا بالعفوية وصدق العاطفة، فهو يعبر وينشد من غير تكلف.

ومن الأساليب الأدبية التي امتلأ بها الديوان – كعادة الشعراء – استنطاق لسان الحال ولم يقتصر على لسان المقال، كقوله على لسان حال الرضا (عليه السلام):

يـــــــزواري مصـــــــــيباتي عصـــــيبه مـــــاهي اشـــــويه
رأيـــت اهـــوال يـــا شـــيعه تخـــــلي الچبـــــد ملويـــــه

ولم يخل شعره من الأساليب البلاغية كالتشبيه والتمثيل وغيرها، مثل قوله في التمثيل:

وقـــع فـــوق القـــبر يصرـــخ قـــــومي ونشـــــفي دمـــــعي
مثـــل مـــا وقعـــت الزهـــره عـــــلى قـــــبر النـــــبي تـــــنعي
آ يمكسرـــــــة الاضـــــــلاع مـــــثلچ ينكسرـــــ ضـــــلعي
ضـــــميني بوســـــط قـــــبرچ أســـــــــليچ وتســـــــــليني

وامتاز شعر هذا الديوان بتنوع الأساليب الشعرية، التي تُنبؤ عن الملكة الشعرية التي حاز عليها شاعرنا، وإليك بعض الأساليب الشعرية التي ترصدتُها خلال قراءتي لهذا الديوان، من دون تمثيل، تاركًا ذلك للقارئ، تجنبا للإطالة.

فمنها: الأسلوب الخطابي، وهو أسلوب شعري يكون فيه الشعر متدفقا حيوية عن نفس الشاعر تدفق العين الثائرة، تحس فيه بأحاسيس الشاعر الملتهبة، وأنفاسه الواقدة، يعبر فيها عما يخالجه من إحساس تجاه المخاطب، مطبوعًا بطابع الجدية في الغالب، وتبرز فيه عواطف الشاعر وأهواؤه وخياله الواسع، داعيًا لفكرته وعقيدته وما يخالج نفسه.

ومنها: أسلوب الواقع، الذي يكون فيه الشاعر مؤرخًا، يسرد واقعة معينة وحدثًا معينًا بأبيات متراصة واضحة المعاني، ويمتاز بالسهولة والإبانة.

ومنها: أسلوب الحوار، وهو أن يسرد الشاعر حوارًا بين شخصيتين قد يكون أحدهما الشاعر نفسه، وقد تكثر هذا الأسلوب في قصائد الشاعر.

ومنها: أسلوب الوصف، وهو وصف الشاعر لمشاهد وصور معينة معبرًا عما يختلج شعوره تجاهها، ويعتمد هذا الأسلوب على الاندفاع النفسي وتأثيره في الاستعارات والتشابيه البلاغية، وتكون يد الشاعر الفنان مزخرفة للقصيدة وفق ما يمليه إحساسه، ويعمد إلى صقلها بما أوتي من شاعرية فذة.

وقد اهتم الشاعر في ديوانه هذا بتنوع موسيقى الإطار أو الموسيقى الخارجية في شعره، والمتمثلة في تنوع البحور الشعرية، ولم يخرج فيها عن المتعارف بين شعراء الشعر الحسيني العامي في البحرين، ويرى بعض النقاد أن للموسيقى علاقة بالعاطفة، والشعر لا يكون شعرًا إلا بالنَّسج والتأليف بين الفكرة والعاطفة والصور والموسيقى اللفظية وتنسيق القالب الشعري.

وهانحن نذكر بعض البحور التي اشتمل عليها الديوان، ونوردها باسمها المتداول في أوساط الشعر الحسيني، فمنها: البحر القصير (الفائزي)، كقوله:

زينـــب يبنـــت الـــلي ضـــلعها كاسرينـــه

حيـــدر مـــن ايـــدچ راح لا تترقبينـــه

ومنها: البحر الطويل، كقوله:

قامـت سـكينه تنـادي والـدمع غـرق العـين

لحـقي اخـوانچ يعمـه قبـل مـا يفجـع البـين

ومنها: الموشح، كقوله:

عـــلى الـــدنيا العفـــا بعـــدك رحـــت يـــا زهـــرة أيـــامي
شـــحالي وانظـــرك طـــايح بحـــرّ الگـــاع قـــدامي

ومنها: المجرد، كقوله:

يـــالموت مـــا أقـــدر أتكلـــم
خـــذني وريحـــني مـــن الهـــم
لوكـــان حـــزني عـــلى يلملـــم
چـــان انخســـف منـــه وتهـــدم
حـــزني عـــلى الـــلي في محـــرم
مـــذبوح والمنحـــر يصـــب دم

ومنها: الركباني، كقوله:

ماتـت الزهـرا وعـلي مـدها عـلى المغتسـل
وامـن المصـيبة انكسرـ ظهـره ودمعـه انهمـل

ومنها: الشيالي أو الشيالة، كقوله:

وافجعـــتي للهـــادي وافجعـــتي للهـــادي
جبريـــل يـــبچي ويـــنعى وافجعـــتي للهـــادي

ومنها: الرمل الثلاثي، كقوله:

في أمـــان الله يزينـــب يـــا عـــلي
هـــالمخيم مـــن أهلكـــم يختـــلي

وليست البحور والأوزان هي كل موسيقى الشعر، بل للشعر ألوان من الموسيقى، ففي مقابل موسيقى الإطار الخارجية موسيقى النسيج الداخلية، وقد كنت أحب أن أقدم دراسة شاملة لديوان (ندبة الأولياء)، أتناول فيها موسيقى النسيج الداخلية أيضًا بالتفصيل والجوانب الأخرى كمستوى اللغة والدلالة وغيرها، لكن الوقت لا يسعف والمقام لا يسمح، فاقتصرت على ما تقدم.

وفي الختام، أسأله سبحانه التوفيق لصاحب الديوان إلى المزيد من العطاء في خدمة الحسين (عليه السلام)، ولست أنسى شُكره إذ بوَّأني مكانةً لست من أهلها، وذلك لحُسن ظنه، وطيب عنصره، حيث طلب مني التقديم لديوانه، فأسأل الله سبحانه أن يُجزله عظيم الثواب لحسن ظنه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الأطيبين الأطهرين.

حسن بن علي آل سعيد

١٢ / ٨ / ١٤٣٧هـ